مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: الاهـــرام
التاريخ : ١٩٨١/٦/٤

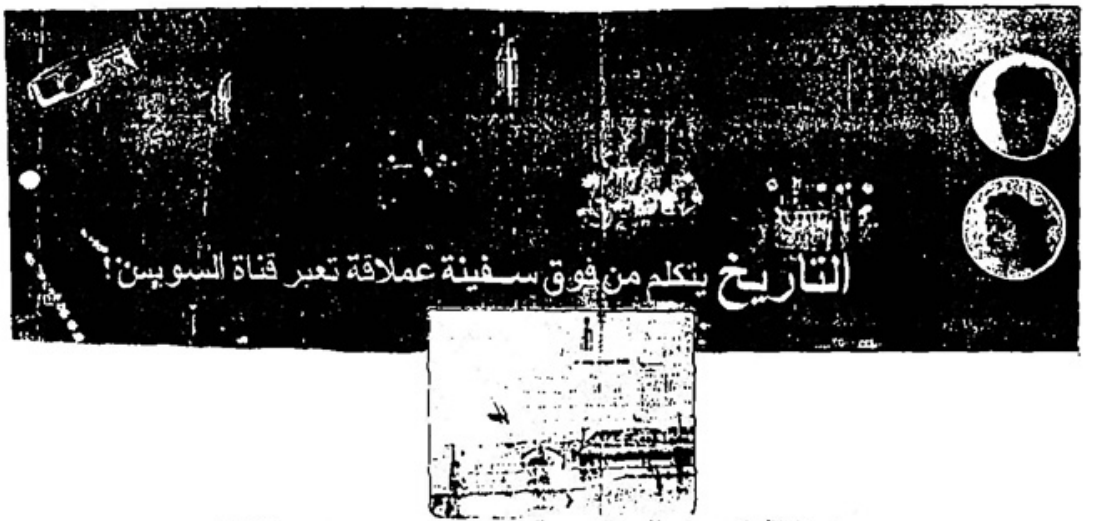

● ناقلة البترول العملاقة ـ مثيرفا ـ وهى تعبر القناة والى اعلى قبطان الناقلة والضابطة الالمانية ●

اذا كان التاريخ هو الذى يصنع الرجال العظام .. فان الرجال العظام هم الذين يوجهون دفة التاريخ .. وهم الذين يصنعون الاحداث .. وهم الذين يكتبون التاريخ ليصبح فى النهاية شاهدا لهم .. وشاهدا عليهم !

حقيقة لمعت فى راسى مثل عود الثقاب المشتعل فى يد قائد القاطرة البحرية وهو يشعل سيجارته ويمضى بنا الى داخل البحر الابيض المتوسط أمام

بورسعيد والليل من حولنا
حالك السواد لم يبق على
نهايته سوى ساعات ثلاث.
نحن الان داخل حدود
البحر الابيض .. تركنا
بورسعيد .. تركنا بورفؤاد
.. واصبحنا أمام التفريعة
الجديدة للقناة .. وتقبل
من جوف الظلام باخرة

عملاقة تتلألأ فوقها الاضواء كأنهـا عروس البحـر فى ليلة عرسها .. قالوا لنا : « هـذه هى باخـرتكم التى ستركبونها حتى السويس» .. سوف نركب هذا الجبل العائم بعد لحظات فى رحلة عبر قناة السويس .. لاول مرة داخل التفريعة الجديدة.

ويجتمع داخل رأسى دفعة واحدة — والقاطرة تهتز بنـا فى عنف تحت لطمات أمواج البحر الابيض — الرجال الذين دخلوا التاريخ من بـاب قنـاة السويس .. سنوسرت الثالث ومعه سيتى الاول ثم نخـاو ودارا الاول وبطليموس الثـانى .. يزاحمهم الامبراطور الرومانى تراجان .. بينما وقف غير بعيد فى ثياب الفاتح العربى عمرو بن العاص .. حتى الخـديو سعيد والخديو اسماعيل ومن خلفهما المغامر ديلسبس — الذى استطاع بدهائه وفائق ذكائه ان يشق القناة من جديد قبل ١١٢ سنة — لم يتخلفوا عن الحضور !

ويوقظنى من سحبة الرجال الذين صنعوا تاريخ القناة .. رجالا عظاما كانوا أو مغامرين صوت **الزميل صابر عبد الوهـاب** : انتبه لقد اقتربنـا من باخرتنا .. حذار وأنت تصعد السلم .. وكان علينا أن نقفز ونحن فى قلب البحر والليل من اللنش الذى تركه الى سلم البـاخرة العمـلاقة وهى تتحرك فى طريقها لدخول التفريعـة الجديدة الى الشرق من بورفؤاد .. كل شىء يتحرك .. اللنش .. الباخرة .. الامواج .. الرياح .. واستعذت بالله وقرأت آية الكرسى وقفزت الى أول درجة من السلم الطويل الملتصق بجسم ذلك الحوت المتحرك وأنا أقول بصوت عال لم يسمعه أحد : يا بركة دعاء الوالدين ! .. ووجدت نفسى اصعـد السلم الطـويل ومن خلفى زميلى يحمل حقيبته .. بينمـا ابتعـد عنـا اللنش الذى حملنا الى عرض البحـر .. فى طـريق عودته الى مرساه فى بورفؤاد !

ومن فرط خوفى من السقوط اخذت أعد درجات السلم .. ١٢٢ درجة بالتمام والكمال اصبحنا بعدها فوق ظهر البـاخرة العمـلاقة .. ووقفت التقط انفاسى ونحن نترك اضـواء بورسعيد التى لم تستيقظ بعـد .. وربما لم تنم بعد .. فى طريقنا عبر القناة الى السويس ..

ويصـرخ زميـلى فى أذنى حتى أسـمع من فـرط عويـل الرياح من حولنا : لا تنس أن الرئيس السادات سوف يحضر غدا فى الاسـماعيلية الذكرى السادسة لافتتاح القناة ..

وأقـول فى همس : انت تقـرأ أفكارى يا زميلى .. الرئيس السادات ان له بابا خاصـا به فى كتاب قناة السويس .. بعيـدا عن كل الذين دخلوا التاريخ من خلالها ..

يكفيه انه اعادها للملاحة الدولية قبـل ٦ سنوات .. وقـاد الافتتاح الثالث لها فى العـام المـاضى لكى تدخل عصر الناقلات العملاقة ..

ويصرخ زميلى : ماذا قلت ؟ انتى

لا أسمعك ؟ .. ولكننا كنا قد وصلنا الى باب المصعد الذى يحملنا الى سطح هذه الناقلة العملاقة .. واكتشفت لاول مرة ان الناقلة المانيه الجنسية من العبارات المكتوبة على باب المصعد باللغة الالمانية .. وتوقف المصعد فى الدور الرابع .. لنجد أمامنا أحد بحارة الناقلة الذى قادنا الى صالون فاخر ... ودار بيننا حوار طويل تخلله فناجين القهوة الالمانية السوداء التى تقدمها لنا كل ٥ دقائق فتاة المانية صغيرة السن .. قال الرجل : ان هذه الناقلة واحده من السفن العملاقة التى قال عنها « **مستر مشهور** » بقصد المهندس مشهور احمد مشهور .. انها ستعبر القناة بعد التفريعة الجديدة .. وللعلم فان حمولة هذه الناقلة ٢٤٠ الف طن من البترول .. وهذه هى ثالث مرة تعبر فيها القناة .. وأولها قبل الافتتاح الرسمى للتفريعة الجديدة .. حيث عبرنا القناة فى رحلة تجريبية فى ٨ نوفمبر الماضى .. نحن هنا ٣٥ بحارا نحرك هذا الجبل العائم .. وأسأله: الى أين تتجهون ؟ قال : الى الخليج العربى .. أى دوله ؟ — نحن لانعرف .. فاننا فى انتظار اشارة لاسلكية من بون حيث مقر الشركة لكى يقولوا لنا اسم البلد !

.....

الساعة المعلقة على حائط الصالون الفاخر تشير الى الثانية والنصف بعد منتصف الليل .. ولوحات لرامبرانت وفان جوخ معلقة .. هنا وهنـــاك

واسأل : من هذا الفنان الذى اختار هذه اللوحات الرائعة ليضعها هنا.. قال : انه ربان السفينة .. قلت : وأين هو ؟ قال : انا ربان السفينة!

ووقفنا من جديد نسلم عليه ونحييه ونشد على يديه .. وأسأل : مادمت أنت ربان السفينة اذن من يقودها فى رحلتها عبر القناة .. قال بلا تردد المرشد المصرى ..

كدت أصفق لمصر .. وأنا أسمع كلمة المرشد المصرى .. وشعرت بفخر بالغ لكونى مصريا .. ونحن فوق باخرة هى حسب نص القانون الدولى قطعة أرض المانية !

وقلت وأنا أقف : اريد ان اراه .. قال : من ؟ قلت : المرشد المصرى بالطبع .

وصعدنا اليه .. فى غرفة القيادة وفاجأنا القبطان محمد حسين — ٣٠ سنة فى ارشاد السفن — بقوله : أنا اعرف انكم هنا .. ولكنكم سبقتمونى فى الصعود الى الباخرة من بورسعيد .. لم يكن القبطان وحده كان يصحبه قبطان مصرى آخر هو مصطفى جابر — ١٦ سنة فى ارشاد السفن — وكان القبطان مصطفى جالسا الى جوار فتاة المانية ممسكة بدفة الناقلة العملاقة .. وسألت : فتاة تقود هذا العملاق ؟ وقال كابتن مصطفى انها برتبة ضابط أول تحت التمرين .. **وهى تحرك الدفة حسب تعليماتى** لهـــا ... ونظرت من أعلى غرفة القيادة .. الى القناة أمامنا كأنهـا ثعبان فضى اللون تحت ضوء كشافات

الناقلة القوية .. والشاطئان بلونهما السواد .. وشعرت كأننا فوق سطح مجمع التحرير يتحرك فوق سطح المياه .. شعور غريب بالرهبة والامان في نفس الوقت .. فالتي تحرك دفة هذا المعلاق الاسطوري فتاة لم تتجاوز السـ ٢٧ من عمرها تلك هي الرهبة ولكن العقل المفكر والمحرك لكل شيء هنا هو المرشد المصري .. وهذا هو الامان !

القبطان محمد جنيد كبير المرشدين جالس من خلف جهاز الرادار الضخم يشير الى خطوطه الفاضحة وحركة شعاعه الدائرية : لقد عبرنا التفريعة .. ونحن نسير الان داخل القناة الرئيسية في طريقنا الى الاسماعيلية .. هذه النقطة الصغيرة البيضاء .. فوق شاشة الرادار انها السفينة الانجليزية التي تسبقنا بنحو كيلومتر .. أما هذه الخطوط على الجانبين فانها للمساكن والقرى والمنشآت والكراكات التي تطهر القناة أولا بأول على الشاطئين ..

وأتذكر ما قاله لي ونحن في غرفة المراقبة في بورسعيد القبطان مترت .. لا تدخل سفينة الى القناة قبل أن يتصل بنا من عرض البحر بالراديو .. لدينا سفينة ارشاد خارج الميناء نبلغ اشارات السفن القادمة من قلب البحر ونريد أن تعبر القناة .. ثم تأخذ مكانها خارج الميناء حتى نسمح لها بالدخول في دورها ومع قافلتها .. لدينا الآن في الميناء نحو ٢٠٠ سفينة في انتظار العبور .. للعلم السفينة التي ستركبونها الماليزية غربية واسمها ميزوفا ... غرفة المراقبة التي نجلس فيها ليل نهار عمرها من عمر القناة نفسها بعني ١١٣ سنة .. لم تتغير أبدا .. ! نقط المراقبة على طول خط القناة تتصل بالراديو .. البواخر كذا عبرت أمامنا الان ... المرشد يتحرك من عندنا لادخال السفينة الى الميناء .. ومرشد آخر يصعبها في رحلتها الى الاسماعيلية .. لتسليمها الى مرشد ثالث حتى السويس .. ثم مرشد رابع حتى قلب الخليج .. المرشدون هم قلب القناة النابض .. وبدونهم تصاب الملاحة في القناة بالشلل التام .. فاذا توقفه القلب .. توقفت انفاس الحياة !

واتذكر وانا انظر في اعجاب بالغ الى محمد جنيد ومصطفى جابر .. ما جرى بعد تأميم قناة السويس قبل ٢٥ سنة بالضبط عندما انسحب المرشدون الاجانب وقام المرشدون المصريون بانقاذ قناة السويس .. وانقاذ سمعة مصر .. واسم مصر ..

وأسأل : وما هو دور غرفة المراقبة الالكترونية في بور سعيد والاسماعيلية .. قال محمد جنيد : انها تعطيك على شاشة تليفزيونية تحركات كل السفن على طول القناة .. كأنها خريطة مرسومة باليد .. ولكنها خريطة متحركة .. قلت : والامان ؟ قال : بين يدي المرشد .

. . . . . .

الساعة في غرفة القيادة قبيل الخامسة صباحا بخمس دقائق .. النهار في الخارج قد أعلن انتصاره على ما بقي من ذيول الظلام .. الساعة المخصصة للضابطة الالمانية

القيادة السفينة تحت اشراف المرشد المصرى انتهت .. تسللت ربيت هناك وهذا هو اسمها الى خارج صفر القيادة .. الصباح يغمر كل شيء .. وجدتنى فى انتظارها .. قالت : انا اعرف انك صحفى .. وانا صحفية ايضا .. تركت مهنة الكتابة الى حياة البحر ، أمامى عامان كاملان لاصبح ضابطا ثالثا .. انا اعشق البحر .. وسأبقى معه بقية عمرى .. الا اذا رأى زوج المستقبل ان اتركه .. فاتركه على الفور !

. . . . . .

أصبح النهار الان هو سيد الموقف

.. هذه المئذنة التى تملأ علينا من البر الشرقى .. لقد اصابتها قنابل اليهود فى آخر حرب معهم .. القنطرة شرق مازالت منازل كثيرة فيها تحكى آثار الحروب الثلاث التى غيرت حياة قناة السويس عبر ربع قرن من الزمان .. اما القنطرة غرب فان ملامح الحياة قد غيرتها وتحولت الى سوق كبيرة للبضائع القادمة من بورسعيد ..

غير بعيد من هنا .. الى غرب القناة جرت معارك تاريخية للدفاع عن الترابه المصرى والشرف المصرى .. قادها الزعيم احمد عرابى قبل ٩٩ سنة بالضبط .. فى التل الكبير والفصاصين .. واشعر كان عرابى نفسه قد تجسد أمامى وانا جالس وحدى داخل صالون السفينة العملاقة وهو يقول لى : لقد خدعنى ديلسبس .. كما خدعنى اعضاء مجلس ادارة قناة السويس .. كما خدعنى الانجليز كعادتهم دائماً .. فكنت فى رهبة حين جرى ذلك كله بيد سيادة الزعيم!

.. قال : لقد فكرت طويلا هل اغلق القناة حتى لا يستخدمها الانجليز فى حربهم ضد مصر .. ولكنى لم افعل .. حتى عندما وصلنى تلغراف من ديلسبس فى ١٤ يوليو ١٨٨٢ يسأل عن رأينا فى التحركات الحربية تجاه قناة السويس .. وارسلنا له نقول : ان القناة مفتوحة للمنافع الدولية واننا لن نتعرض له بضرر اذا امكنه منع السفن الحربية الانجليزية من خرق حرمة القناة .. وارسل لنا فى نفس اليوم برقية يقول فيها : انى متكفل بمنع الانجليز من اختراق القناة .. ولكنه لم يفعل واخترق الانجليز القناة فى ٢٦ يوليو ٨٢ بقيادة ويلسلى .. وأصدرت أمرى بردم القناة ولكن بعد فوات الاوان !

. . . . . .

. . . . . .

وينسحب الزعيم الكبير فى هدوء .. ويزدحم غرفة الصالون أو تكاد بكل الرجال الذين دخلوا التاريخ من باب قناة السويس .. هذا هو سنوسرت الثالث فرعون مصر القادم من عام ١٨٧٤ قبل الميلاد .. وهو أول من حفر القناة ومعه سيتى الاول القادم من عام ١٣١٠ قبل الميلاد .. ثم نخاو القادم من عام ٦١٠ قبل الميلاد ودارا الاول من عام ٥١٠ قبل الميلاد .. وبطليموس الثانى من عام ٢٨٥ قبل الميلاد .. أما هذا الذى يرتدى زى الامبراطور فانه تراجان الامبراطور الرومانى وقد جاء من بعد الميلاد بـ ١١٧ عاما .. وعند الباب وقف الفاتح العربى عمرو بن العاص الذى شق قناة أمير المؤمنين بعد الفتح

الاسلامى لمصر فى عام ٦٤٠ ميلادية .. واستمرت نعمل ١٥٠ عاما متواصلة ..

كلهم قالوا : ان تلك التى نسير فيها ليست قناتهم .. فهذه قناة عريضة واسعة عميقة تسير فيها سفن عملاقة بلا شراع لا عهد لهم بها .. ولم يكن على ايامهم مرشدون للسفن .. بل كان كل قائد سفينة يعبر بها القناة بنفسه وعلى مسئوليته ...

ولما قلت لهم : ان رسم عبور هذه السفينة العملاقة التى تركبونها من بورسعيد حتى السويس هو ربع مليون دولار .. كاد يغمى على كثير منهم .. وقال بطليموس الثانى : ان المبلغ يساوى كل خراج مصر فى ذلك الوقت !

. . . . . .

. . . . . .

وينسحب التاريخ من الصورة ليدخل الواقع ممثلا فى القبطان يدعونا الى طعام الافطار ويعلن انتا على مسافة نصف ساعة من الاسماعيلية .. واتطلع الى ساعة الصالون انها تقترب من السابعة والنصف صباحا .. انها نفس الساعة التى يذهب فيها المهندس مشهور الى مكتبه كعادته دائما .. وأسأل القبطان : ما لكى تصنك مع البحر ؟ قال : طول عمرى فى البحر ٢٠ سنة كاملة فوق السفن .. وأسأل : لماذا تعشقون البحر قال بلا تردد : نحن لا نعشق البحر .. ان البحر هو الذى يختار رجاله .. ولم أفهم أو أحاول ان افهم وقتها ما قاله .. ولكن شعورا قويا غمرنى .. شعور بالالفة والصداقة والمحبة والسلام .. صنعته هذه القناة التى تجمع كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة سفنا .. وانا سا من كل انحاء الدنيا الواسعة يعيشون داخلها .. يتنفسون هواء مصريا خالصا .. كل واحد فيهم هو بمثابة قصة انسانية متحركة .. ولكن القناة جمعتهم فتستقبلهم بالحب .. وتودعهم فى آخر المشوار بالحب كله ...

ايتها القناة كم من الرجال العظام دخلوا التاريخ من بابك .. وكم من المغامرين دخلوا التاريخ أيضا باسمك .. وكم من حروب وقصص حب كتبت باسمك أيضا .. ورغم هذا التاريخ الطويل الذى يمتد الى الوراء ٢٨٥٥ عاما الا أن قناة السويس مازالت بالحياة تنبض .. وبالسلام لكل الشعوب تتحرك ..

. . . . . .

ويشدنى زميلى من يدى وهو يقول : تعال نهبط فى الاسماعيلية ... السادات هنا غدا أليس هو الخامس من يونيو ... ودون أن أتكلم جمعت أوراقى ... وقفزت معه الى لنش المرشدين فى طريقنا الى الاسماعيلية □

عزت السعدنى